

من نماذج أهل الرحمة

وأهل الرحمة هم المقتدون أو المشبهون بالرجال الحقيقيين ، الذين منهم على سبيل المثال ، لا الحصر :

سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه

وهو أول من آمن برسول الله ﷺ من الرجال .. وهو الذي صدق الرسول ﷺ يوم أن كذبه الناس .. وكان هذا في صبيحة الإسراء .. فلقد ذهب إليه أناس من قريش ، وقالوا له : ما تقول يا أبا بكر في صاحبك ؟ .. إنه يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة .. !

فقال لهم أبو بكر في ثقة المؤمن المخلص : والله لئن كان قد قال لكم ذلك لقد صدق .. والله إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ! .. ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره الرسول بما وقع له من ذلك الحادث العجيب ، فلم يزدد الصديق المؤمن إلا إيماناً بالرسول وتصديقاً ، حتى لقد سُمِّيَ منذ ذلك اليوم : « صديقاً » .

- وكان كثيراً ما يتعرض لكفار قريش إذا ما رأهم يقومون بتعذيب أحد الأصحاب الضعفاء ، كما كان يحدث لبلال بن رباح رضي الله عنه ، فلقد روى أنه لاقى من « أمية بن خلف » أنواعاً من الأذى ، وألواناً من التعذيب ، لا يصبر

عليها إلا مؤمن قوى الإيمان .. وقد رآه أبو بكر يوماً يقاسى أشد العذاب ؛ فقال لسيدته «أُمِّيَّة» : ألا تتقى الله في هذا المسكين ؟ فقال : أنت أفسدتَه وفنتته عن دين آلِهتنا ، وعبادة أصنامنا .. فعرض عليه أبو بكر ثمناً له ، وما زال يُساومه حتى اشتراه وأعتقه في سبيل الله ، بعد أن خلصه من تعذيب سيِّده .

وفي هذا نزل قول الله تعالى : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿١﴾ .

والمقصود بكلمة «الأشقى» في الآية الكريمة هو أُمِّيَّة بن خلف ، و«الأتقى» هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

- ولقد كان أبو بكر رضي الله عنه هو المصاحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في هجرته إلى المدينة المنورة .. تقول أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر معه ماله كله « وكان خمسة آلاف أو ستة آلاف » فانطلق بها معه . قالت : فدخل علينا جدى أبو قحافة - وقد ذهب بصره - فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قلت : كلا يا أبت ، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً ، فأخذت أحجاراً فوضعتها في كُوَّة (ثقبه

(١) سورة الليل : الآيات (١٤ - ٢١) .

فى الحائط) فى البيت ، والذى كان أبى يضع ماله فىها ، ثم وضعت عليها ثوباً
ثم أخذتُ بيده ، فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال ، فوضع يده عليه ،
فقال: لا بأس إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم . تقول :
لا ، والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكنى أردتُ أن أسكِّنَ الشيخَ بذلك (١) .

- وكان هذا هو دأب أبى بكر رضي الله عنه فى مسارعتة إلى الخيرات .. يقول
عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ، فوافق ذلك
مالاً عندى ، فقلت : اليوم أسبقُ أبا بكر إن سبقته يوماً ، فجئتُ بنصف مالى ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت لأهلك ؟ » فقلت : مثله . وأتى أبو بكر
بكل ماله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت لأهلك ؟ » فقال : أبقيتُ
لهم الله ورسوله ، فقلت : لا أسأبُكُ إلى شىء أبداً » رواه أبو داود والترمذى
وصححه .

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وكان عمر - كذلك - مثلاً يُحتذى به فى الرحمة بالرعية والرفق بها ..
ولقد ورد أنه كان - وهو أمير للمؤمنين - يحمل الدقيق على ظهره ليطعم
الجياع ويُسعد المحرومين .

قال أسلم : خرج عمر وأنا معه ، حتى إذا كنا بصوار (مكان) إذ نار
تسعر ، فقال : انطلق بنا إليهم ، فهرولنا حتى دنونا منهم ، فإذا بامرأة معها

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٣٣٨ .

صبيان لها .. وقدر منصوبة على نار وصبيانها يتضاغون^(١) ، فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء (وكره أن يقول : يا أصحاب النار) ، قالت : وعليك السلام ، قال : أدنو؟ قال : ادن بخير .. فقال : ما بالكم؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد . قال : فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت : من الجوع . قال : وأى شيء فى هذه القدر؟ قالت : ما لى ما أسكتهم به حتى يناموا ، فأنا أعللهم وأوهمهم أنى أصلح لهم شيئاً حتى يناموا !! الله بيننا وبين عمر .. قال : أى رحمك الله ، ما يدري بكم عمر .. قالت : يتولّى أمرنا ويغفل عنا .. قال أسلم : فأقبل عمر على وقال : انطلق بنا . فخرجنا نهول حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عدلاً فيه كبة شحم^(٢) فقال : أحمله على ظهري . قال أسلم : فقلت : أحمله عنك (مرتين أو ثلاثاً) ، فقال : أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة؟ فحملته عليه فانطلق ، وانطلقت معه نهول حتى أتينا إليها ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئاً ، فجعل يقول لها : ذرى على وأنا أحس لك ، وجعل يتفخ تحت القدر ، وكان ذا لحية عظيمة ، فجعلت أنظر إلى الدخان من خلل لحيته ، ثم أنزل القدر ، فأنته بصفحتها فأفرغها ، ثم قال : أطمعهم وأنا أسطح لك ، فلم يزل حتى شبعا ثم خلّى عندها فضل ذلك^(٣) ، وقام ، وقمت معه ، فجعلت تقول : جزاك الله

(١) أى : يكون من شدة الجوع .

(٢) جوال دقيق وإناء به دهن .

(٣) أى : ترك عندها الفائض من الدقيق والدهن .

خيراً ، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين^(١) !! فيقول : قولى خيراً ، فإنك إن جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله ، ثم تَنَحَّى ناحيةً ، ثم استقبلها وربض لا يكلمنى حتى رأى الصبية يضحكون ويصطرعون ، ثم ناموا وهدأوا ، فقام وهو يحمد الله !! فقال: يا أسلم ، الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم^(٢) .

وعن أبى صالح الغفارى ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتعهد عجوزاً كبيرة عمياء فى بعض حواشى المدينة (أطرافها) من الليل ، فيسقى لها ، ويقوم بأمرها فكان إذا جاءها ، وجد غيره قد سبقه إليها ، فأصلح ما أرادت ، فجاءها غير مرة ، كيلاً يُسَبِّقَ إليها ، فرصد عمر من يأتى ، فإذا هو أبو بكر - وهو يومئذ خليفة - فقال عمر : أنت هو لعمرى (أى : ما كنت أظنه غيرك) رواه ابن عساكر^(٣) .

- وهكذا كان أيضاً :

عثمان بن عفان رضي الله عنه

فلقد كان - عليه رضوان الله - جواداً تقياً ، وفياً للعهد ، عطوفاً على الرعية ، متواضعاً ، يوضئ نفسه ، ولا يوقظ الخدم ، وينام فى المسجد حتى تؤثر الحصباء فى جسمه - وهو خليفة - مع نشأته المترفة وثرائه الواسع ،

(١) لأنها إلى نهاية هذا الإطعام لم تعرف أنه أمير المؤمنين .

(٢) تاريخ الكامل ج-٣ ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) تاريخ الخلفاء ص-٨٠ .

وحسبه ﷺ أنه من كُتَاب الوحي ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة الذين تُوِّفَى رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم .. بل وحسبه أن النبي ﷺ قال في شأنه : « لكل نبي رفيق ، ورفيقي في الجنة عثمان » .

- ومن أعظم مآثره ﷺ (١) أنه عندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة فاجأتهم - في بداية استقرارهم بها - مشكلة الماء .. وكان بها عين تفيض بماء عذب طيب المذاق ، تُدعى (بئر رومة) ويملكها رجل يهودى يبيع ملء القربة بمُدٍّ ..

وتمنى رسول الله ﷺ لو يجد بين أصحابه من يشتريها ، حتى يفيض ماؤها على المسلمين بغير ثمن ..

وسارع عثمان ﷺ إلى تحقيق رغبة الرسول ﷺ ، فعرض على اليهودى صاحب البئر أن يبيعها له ، فأبى .. فساومه (عثمان) على نصفها ، واشترى النصف الثانى باثنى عشر ألف درهم - على أن تكون لليهودى يوماً ولعثمان يوماً - فكان المسلمون يستسقون فى يوم عثمان ما يكفيهم يومين !! وهكذا وجد اليهودى نفسه ، وقد خسر سوقه التى كانت رائجة ، فعاد يعرض على (عثمان) أن يشتري منه النصف الثانى ، فاشتراه .. وفاضت البئر بمائها العذب ، تروى أهل المدينة بغير ثمن ، وبغير حساب .. !!

- وفى العام التاسع الهجرى أراد (هرقل) الإمبراطور الرومانى غزو الجزيرة العربية ، فلما ترامت الأنباء إلى رسول الله ﷺ نادى فى أصحابه

(١) كما جاء فى كتاب (خلفاء الرسول ﷺ) للأستاذ خالد محمد خالد ، عليه رحمة الله .

بالتهيؤ للجهاد في سبيل الله ، وحضهم على التبرع - كل على قدر طاقته - فسارعت النساء بالحلى يُقدمنه إلى رسول الله ﷺ ليستعين به في إعداد الحملة .. بيد أن التبرعات التي جمعت من الرجال والنساء لم تكن لتُغني كثيراً أمام المتطلبات الهائلة للجيش الكبير الذي كان يُسمى يومئذ (جيش العُسرة) .. ولهذا ؛ فقد نظر الرسول ﷺ إلى الصفوف الطويلة العريضة من الذين استعدوا للقتال .. وقال : « مَنْ يُجَهِّزْ هَؤُلاءِ ، وَيَغْفِرَ اللهُ لَهُ » .. ؟؟ فما كاد (عثمان) يسمع نداء الرسول هذا ، حتى سارع إلى مغفرة من الله ورضوان ، وقام بتجهيز الجيش كُلِّه ، حتى لم يتركه بحاجة إلى خُطامٍ أو عقالٍ !!

يقول ابن شهاب الزهري :

« قَدَّمَ عثمان لجيش العُسرة في غزوة تبوك تسعمائة وأربعين بَعيراً ، وستين فرساً ، أتمَّ بها الألف » !!
ويقول حذيفة :

« جاء عثمان إلى رسول الله ﷺ في جيش العُسرة بعشرة آلاف دينار صبَّها بين يديه ، فجعل الرسول ﷺ يُقبلها بيده ويقول : غفر الله لك يا عثمان ما أسررتَ وما أعلنتَ ، وما هو كائن إلى يوم القيامة » .

ويقول عبد الرحمن بن عوف :

« شهدتُ رسول الله ﷺ وقد جاءه عثمان بن عفان في جيش العُسرة بسبعمائة أوقية من الذهب » .

- وفي خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، قحط الناس ؛ فكان لعثمان رضي الله عنه موقف إنساني عظيم .. يرويه ابن عباس رضي الله عنهما فيقول :

« قحط الناس في زمان أبي بكر ، فقال الخليفة لهم : إن شاء الله لا تُمسونَ غداً ، حتى يأتيكم فرج الله » .

فلما كان صباح الغد ، قدمت قافلة لعثمان^(١) ، فغدا عليه التجار ، فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالَفَ بين طرفيها على عاتقه .. وسأله أن يبيعهم قافلته .. « فسألهم : كم تُربحوني .. ؟ قالوا: العشرة اثني عشر .. قال : قد زادني .. قالوا : فالعشرة خمسة عشر .. قال : قد زادني .. قالوا : من الذى زادك ، ونحن تجار المدينة ؟ . قال : إنه الله .. زادني بكل درهم عشراً ، فهل لديكم أنتم مزيد .. ؟ فانصرف التجار عنه ، وهو ينادى : اللهم إني وهبتها فقراء المدينة بلا ثمن ، وبلا حساب » .. !! .

- ولقد كان أمير المؤمنين :

على بن أبي طالب (كرم الله وجهه)

وهو رابع الخلفاء الراشدين - كذلك - مثلاً يُحتذى به في الرحمة والشفقة بالرعية .. وحسبى - قبل أن أقف مع الأخ المسلم والأخت المسلمة على بعض مآثره - أن أقرأ معهما أولاً تلك القصة الموضوعية التي

(١) وكانت آتية من اليمن أو من الشام ، محملة بالخيرات .

قرأتها^(١) تحت عنوان :

الإنفاق والبذل في سبيل الله

فلقد جاء فيها أنه كان في بيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه خمس من الأنفس - علي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ، والحارث - لم يذوقوا في ليلتهم طعاماً ، فباتوا على الطَّوى .. وما أن أصبحوا حتى دفعت فاطمة - رضي الله عنها وعن جميع أهل البيت - رداءها إلى علي ليبيعه ويشتري بئنه طعاماً .. فباعه بستة دراهم .. وبينما هو في الطريق إلى السوق لكي يشتري الطعام .. إذ به يمر - وبدون قصد - على جماعة أوشكوا هم أيضاً على الهلاك من شدة الجوع .. فآثرهم على نفسه وأهله ، وأعطاهم الدراهم الستة .. ثم اتجه بعد ذلك إلى بيته علّه يجد شيئاً آخر ليبيعه ويشتري طعاماً بئنه .. ولكن الله تبارك وتعالى - وهو العليم بما كان منه من إيثار وشفقة - أرسل إليه مدداً من عنده ؛ فقد أقبل عليه رجل في يده ناقة .. وبعد أن ألقى السلام عليه .. قال له : يا أبا الحسن ألك في شراء هذه الناقة ؟ فقال له علي : أجل^(٢) ، لو كان معي ثمنها . فقال الرجل : خذها نسيئة^(٣) إلى أن يأتيك الفرج إن شاء الله .. فقال له علي : وبكم تبيعها لي ؟ قال : بمائة درهم .. فاشتراها علي وأخذ بزمامها .. وبعد أن انطلق بها قابله رجل آخر ، فقال له : أتبيع هذه الناقة يا أبا الحسن ؟ قال : نعم .. فقال له الرجل : بكم اشتريتها ؟ قال : بمائة

(١) في كتاب (العظات البالغات) لفضيلة الشيخ عبد الناصر فاضل علي ، رحمه الله ،

بتصرف وإضافات يسيرة .

(٢) أي : بئمن مؤجل .

(٣) أي : نعم .

درهم .. فقال له الرجل : أنا أشتريها منك بربح ستين درهماً .. فباعها له .. وبعد أن دفع إليه الرجل المائة والستين درهماً .. انطلق سيدنا علي - قاصداً بيته - فلقى الرجل الأول ، ثم سأله : أين الناقة يا أبا الحسن ؟ فقال له : لقد بعتهُا .. فقال له الرجل : فأعطني حَقِّي إذاً .. فدفع إليه المائة ، وبقي معه الستون .. ثم هرول على بعد ذلك إلى بيته وصبَّ المال - أو الدراهم الستين - في حجر السيدة فاطمة الزهراء ، وهو يقول لها في بهجة وسرور : لقد تاجرتُ مع الله بستة دراهم ؛ فأعطاني ستين ، بكل درهم عشرة دراهم .. فقالت له : لن نأكل من هذا المال ، حتى نعرض الأمر أولاً على رسول الله ﷺ .. ثم انطلقتُ معه إلى رسول الله ﷺ ، فلما كانا بين يديه .. أخبره سيدنا علي بالقصة من أولها إلى آخرها ؛ فقال له الحبيب المصطفى ﷺ : « أبشراً يا علي .. لقد تاجرت مع الله تعالى فأربحك .. فالبائع كان جبريل ، والمشتري ميكائيل ، والناقة مركب فاطمة في الجنة .. ثم قال : يا علي .. لقد أعطيت ثلاثاً لم يُعْطها غيرك : لك زوجة سيدة نساء أهل الجنة ، ولك ولدان سيِّدا شباب أهل الجنة ، ولك صهر هو سيد المرسلين .. فاشكر الله على ما أعطاك ، واحمده فيما أولاك » .

فهذه القصة - في بساطتها - تشير إلى معدن سيدنا علي - كرم الله وجهه - وأنه كان أهلاً لأن يكون زوجاً للزهراء ابنة الرسول ﷺ .. هذا بالإضافة إلى مآثره العظيمة التي جاءت في وصف ضرار الصدائي له .. وكان هذا بعد استشهاده ﷺ .. يوم أن قال معاوية رحمه الله لضرار - الذي كان يعلم حبه الشديد لسيدنا علي ﷺ - :

- « يا ضرارُ صفْ لى عَلِيّاً .. فيقول ضرار : أعفنى يا أمير المؤمنين .. فيقول له معاوية : لتصفنّه .. فيقول ضرار : أما إذ لا بدُّ من وصفه .. فكان والله بعيد المدى ، شديد القوى يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه .. يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته ، وكان والله غرير العبرة^(١) ، طويل الفكرة ، يُقلِّب كَفَّهُ ، ويُخاطبُ نفسه .. يُعجبه من اللباس ما قَصُر ، ومن الطعام ما خَسَنَ ، وكان فينا كأحدنا .. يُجيبنا إذا سألناه ، ويُنبئنا إذا استبأناه .. ونحن - مع تقريبه إيانا ، وقربه منا - لا نكاد نُكلِّمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته .. يُعظِّمُ أهل الدين ، ويُحبُّ المساكين .. لا يطمع القوى في باطله ، ولا ييأسُ الضعيفُ من عدله ..

ثم بعد ذلك يقول ضرار : وأشهد لقد رأيتُه في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليلُ سُدُولَهُ ، وغارت نجومُهُ ، وقد مثل في محرابه .. قابضاً على لحيته ، يَتَمَلَّمُ تَمَلَّمُ السليم^(٢) ، ويبكى بُكاءَ الحزين ، ويقول : يا دُنْيَا غُرِّيْ غيرى .. ألى تعرَّضتِ ، أم إلى تشوّقت .. هيهات ، هيهات .. قد بايتك ثلاثاً لا رجعة فيها^(٣) .. فعمرك قصير ، وخطرك^(٤) حفير .. أه من قلة الزاد ويُبعد السفر ، ووَحْشَةُ الطريق .

(١) أى : غزير الدموع .

(٢) أى : يتالم تالم اللدوغ .

(٣) أى : قد طلقتك طلاقاً لا رجعة بعده .

(٤) الخطر : أى : القدر والمنزلة .

فبكى مُعَاوِيَةَ .. وقال : رحم الله أبا الحسنِ ؛ فلقد كان كذلك .. فكيف حُزْنُكَ عَلَيْهِ يا ضِرَار ؟ فيقول ضِرَار : «حُزْنِي عَلَيْهِ كحُزْنِ مَنْ دُبِحَ واحِدُهَا فِي حِجْرِهَا» (١) .

- ومن إيمانه وتقواه : أنه كان - عليه رضوان الله - يتحرَّج من الشبهات .. فلا يأكل غالباً غير الشعير ، ويختم بنفسه الجراب الذى فيه الدقيق قاتلاً : لا أَحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ بطنى إِلَّا مَا أَعْلَمُ ..

ودخل عليه رجل فى يوم عيد الفطر ، فوجده يأكل خُبْزاً فيه خُسُونَةٌ .. فقال له : يا أمير المؤمنين .. يومُ عيدٍ وخُبْزٌ خُسِنٌ (٢)؟! فيقول له - عليه رضوان الله - :

« اليوم عيدٌ من قُبَلِ بِالْأَمْسِ صِيامه وقيامه .. عيدٌ من عُفْرِ ذنبه ، وَقُبَلِ صومه .. اليوم لنا عيد ، وغداً لنا عيد ، وكلُّ يومٍ لا نعصى الله فيه فهو لنا عيد » .

- ولهذا كان - عليه رضوان الله - فى عيد مستمر ؛ لأنه كان من المطيعين لله ورسوله ﷺ على الدوام .. على أساسٍ من الفهم الصحيح لتعاليم الإسلام ..

وأما عن خامس الخلفاء الراشدين ، وهو :

(١) أى : كحزن من دُبِحَ ولدها الوحيد فى حجرها .

(٢) يريد أن يقول له : أحتى فى يوم عيد الفطر تأكل خبزاً خُسناً ..!!؟

أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

فلقد كان كالخلفاء الأربعة في الورع والزهد والشفقة والرحمة .. بتلك

الصورة التي ترونها لنا زوجته (فاطمة بنت عبد الملك) فتقول^(١) :

« دخلتُ عليه يوماً ، وهو جالس في مُصَلَّاهُ ، واضِعاً خَدَّهُ على يده ،
ودموعه تسيل .. فقلت له : ما يَأَلُكُ ، وفيهِمْ بُكَاءُوكُ .. ؟ فقَالَ : ويحك
يا فاطمة .. إني قد وُلِّيتُ من أمر هذه الأمة ما وُلِّيتُ .. ففكَّرْتُ في الفقيرِ
الجائع ، والمريض الضائع ، والعمالِ المجهود ، واليتيم المكسور ، والمظلوم
المقهور ، والغريب ، والأسير ، والشيخ الكبير ، والأرملة الوحيدة ، وذو
العيال الكثير والرزق القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ،
فعلمتُ أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة ، وأن خصمى دونهم يومئذ
محمد ﷺ فخشيتُ أن لا تثبت لي حجة ، فلذلك أبكى » .

- كما تقول أيضاً (فاطمة) زوجته :

« لقد كان يذكر الله في فراشه ، فينتفض انتفاضة العصفور من شدة

الخوف ، حتى أقول : ليُصبحنَّ الناس ولا خليفة لهم ! » .

- وتقول أيضاً .. وقد سُئِلَتْ عن عبادته ؟ :

(١) كما جاء في كتاب (خلفاء الرسول ﷺ) للأستاذ خالد محمد خالد .. عليه رحمة الله .

« والله ما كان بأكثر الناس صلاة ، ولا أكثرهم صياماً .. ولكنسى والله ،

ما رأيت أحداً أخوف من الله منه » .. !!

- ودخل عليه (محمد بن كعب القرظي) بعد استخلافه .. وقد نحل

جسمه ، وعفا شعره ، وتغير لونه .. ثم أخذَ ينظر إليه .. وهو يتذكر ما كان

مُمَيِّزاً به قبل ذلك من حسن الجسم ، وامتلاء البضعة .. فلما رآه عمر يطيل

النظر إليه - بتلك الصورة المشار إليها - قال له : يا بن كعب .. ما لك تنظر إلى

نظراً ما كنتَ تنظره إليّ من قبل .. ؟ يقول ابن كعب : فقلت : لعجبي يا أمير

المؤمنين !! قال : ومِمَّ عجبك ؟ فيقول له : ممّا نحل من جسمك ، وعفا من

شعرك ، وتغير من لونك .. أين ذلك اللون النضير ، والشعر الحسن ، والبدن

الريان .. ؟! فقال له عمر رضي الله عنه : إنك - إذن - لأشدَّ عجباً من أمرى ، وإنكاراً

لى ، لو رأيتنى - بعد ثلاث - فى قبرى ، وقد وقعت عيناي على وجنتى ،

وسكن الدود منخرى وفمى !! ثم راح يبكى ويبكى !!.

- ولقد كان رضي الله عنه وأرضاه دائم التردد لهذه الآية الكريمة التى يقول الله

تعالى فيها : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (١) ، فكان يتخذ

منها نذيراً يُلْهَب به نفسه لتبلغ بإخلاصها لربه ولدينه ولمسئوليته أقصى

ما يستطيع أولو العزم الراشدون .. وكان يدرك بنور بصيرته أن أدنى مجاملة

(١) سورة يوسف : الآية ١٠٦ .

على حساب إخلاصه لمسئوليته إنما هو شريكٌ متكبرٌ وخفيٌّ ، من نوع ذلك الشرك الذي حذّر الرسول ﷺ أصحابه منه ، مخبراً أن له ديباً كديب النمل .

وكان - عليه رضوان الله - كجده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العدل .. وقول الحق - ولو كان مرأاً .. لدرجة - كما يقولون - أن الذئب في عصره .. كان يقف بجوار الشاة فلا يؤذيها .. ثم يوم أن أكل الذئب الشاة .. قال الناس : مات أمير المؤمنين .

- فرَضِيَ اللهُ عن الخلفاء الراشدين أجمعين .. ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .. اللهم آمين .

كلمة الختام

هذا .. ولما كان خلق الرحمة بالإنسان والحيوان هو أهم خلق ينبغي على الأخ المسلم ، والأخت المسلمة أن يتميَّزا به - بصفة خاصة - حتى يكونا - بسببه كذلك - من الذين سيرحمهم الله تبارك وتعالى .. بدليل قول الحبيب المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - : «الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم من في السماء» ، (١) .

- فقد رأيت في ختام هذا العرض السريع لكل تلك الصفات الحميدة التي بها أو بسببها سنكون - إن شاء الله تعالى - أهلاً لرحمة الله تبارك وتعالى - كما جاء في القرآن والسنة - رأيت أن أذكّر الأخ المسلم ، والأخت المسلمة ، ببعض الأحاديث الشريفة الواردة في كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى (٢) ، تحت عنوان:

* الترغيب في الشفقة على خلق الله تعالى من الرعية والأولاد والعبيد وغيرهم ورحمتهم والرفق بهم .. والترهيب من ضد ذلك .. حتى بالنسبة للحيوان ..

(١) رواه أبو داود والترمذي بزيادة وقال : حديث حسن صحيح .. والحديث وارد عن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه .

(٢) ج٣ صفحة ٣٥١ وما بعدها ، بالإضافة إلى الهامش .. بتصرف .

- فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلی الله علیه وسلم : « مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ » رواه البخارى ومسلم والترمذى ، ورواه أحمد وزاد : « وَمَنْ لَا يَغْفِرُ لَا يُغْفَرُ لَهُ » وهو فى المسند أيضاً من حديث سعد بإسناد صحيح

يعنى : أن من قسا على عباد الله فلم يرحم من يحتاج إلى الرحمة من الضعفاء والأرامل واليتامى والبؤساء والمرضى وذوى العاهات ونحوهم .. فإن هذا - أو مثل هذا - لا تناله رحمة الله يوم القيامة .. وكذلك من لا يغفر للمسيء هفوته ويتجاوز عن إساءته لا يغفر الله له ذنبه .

- وعن أبى موسى رضي الله عنه أنه سمع النبى صلی الله علیه وسلم يقول : « لَنْ تُوْمِنُوا حَتَّى تَرَاحِمُوا » قالوا : يا رسول الله : كلنا رحيم ؟ قال : « إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةٍ أَحَدُكُمْ صَاحِبُهُ ^(١) ، وَلَكِنَّهَا رَحْمَةُ الْعَامَّةِ » ^(٢) رواه الطبرانى ، ورواه رواية الصحيح .

يعنى : لن يكمل إيمانكم حتى يرحم بعضكم بعضاً ، كما قال تعالى فى وصف أصحاب نبىه صلی الله علیه وسلم : ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ^(٣) .

(١) أى : قريبه أو صديقه .

(٢) أى : رحمة كل من يحتاج إلى الرحمة من خلق الله .

(٣) سورة الفتح : من الآية ٢٩ .

- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من لا يَرْحَمَ النَّاسَ لَمْ يَرْحَمَهُ اللهُ » ، رواه الطبراني بإسناد حسن .

- وعن جرير رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من لا يَرْحَمَ مَنْ فِي الْأَرْضِ لَا يَرْحَمُهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ » ، رواه الطبراني بإسناد جيد قوى .
يعنى : مَنْ لَا يَرْحَمُ عِبَادَ اللَّهِ الَّذِينَ فِي الْأَرْضِ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ .

- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ارحموا تَرْحَمُوا ، وَاغْفِرُوا يُغْفَرَ لَكُمْ ، وَيَلْ لَأَقْمَاعِ الْقَوْلِ (١) ، وَيَلْ لِلْمُصْرِينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » ، رواه أحمد بإسناد جيد .
- وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَيْسَ مِنْنا (٢) مَنْ لَمْ يُؤَقِّرِ الْكَبِيرَ (٣) ، وَيَرْحَمِ الصَّغِيرَ (٤) ، وَيَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ » ، رواه أحمد والترمذى وابن حبان فى صحيحه .

(١) قال فى النهاية : « الأقماع : جمع قمع كضلع ، وهو الإناء الذى يترك فى رءوس الظروف لتملأ بالمائعات من الأشربة والأدهان ، شبه أسمع الذين يستمعون القول ولا يعونه ولا يحفظونه ولا يعملون به بالأقماع التى لا تمى شيئاً مما يفرغ فيها ، فكانه يمر عليها مجازاً كما يمر الشراب فى الأقماع اجتناباً » أ . هـ .

(٢) أى : ليس على هدينا الكامل وطريقتنا المرضية .

(٣) يعنى : يعظمه ويحترمه لكبر سنه .

(٤) أى : الذى لا يزال ضعيفاً محتاجاً إلى الرحمة .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت الصادق المصدوق صاحبَ هذه الحجرة أبا القاسم عليه السلام يقول : « لا تُنزع الرحمة إلا من شقى » رواه أبو داود ، واللفظ له ، والترمذى ، وابن حبان فى صحيحه ، وقال الترمذى : حديث حسن ، وفى بعض النسخ : حسن صحيح .

قال العلقمى : « إلا من قلب شقى ، وهو ضد السعيد ، وهو إشارة إلى الشقاء فى الآخرة ، وقد يكون فى الدنيا .. » ورواية الترمذى : « من لم يرحم الناس لا يرحمه الله ، ومن لم يرحمه فهو شقى » .

- وعن نصيح العنسى عن ركب المصرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طوبى (١) لمن تواضع فى غير منقصة (٢) ، وذل فى نفسه من غير مسألة (٣) وأنفق مالا جمعه فى غير معصية (٤) ، ورحم أهل الذلّة والمسكنة (٥) ، وخالط أهل الفقه والحكمة .. » (٦) الحديث . رواه الطبرانى ، ورواه إلى نصيح : ثقات .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن أو الحسين (٧)

(١) أى : العافية الطيبة وهى الجنة ، وقيل : هى شجرة فى الجنة ، يسير الراكب فى ظلها مائة عام .

(٢) أى : فى غير دناءة وخسة وانضاع .

(٣) أى : من غير أن يدل نفسه بسؤال أحد من الناس .

(٤) بل أنفق فى طاعة الله وفى اللذات المباحة .

(٥) أى : وغيرهم من كل من يستحق الرحمة .

(٦) وذلك ليأخذ عنهم ويتعلم منهم .

(٧) أو - هنا - للشك فى أيهما قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ابن عليّ رضي الله عنه أجمعين وعنده الأقرع بن حابس التيمي^(١) ، قال الأقرع : إن لي عشرةً من الولد ما قبلتُ منهم أحداً قطُّ ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ » رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي ، وفي بعض الروايات أنه قال له : « وماذا أملك لك إذا كان الله قد نزع الرحمة من قلبك » .

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنكم تُقبلون الصبيانَ وما نُقبلهم ؟^(٢) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَوْ أَمَلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ » . رواه البخاري ومسلم .

- وعن معاوية بن قرة عن أبيه رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله إنني لأرحم الشاة أن أذبحها^(٣) ، فقال : « إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللَّهُ »^(٤) رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، والأصبهاني ولفظه قال : يا رسول الله إنني آخذ شاةً وأريد أن أذبحها فأرحمها ، قال : « وَالشاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللَّهُ » .

وهذا يعني : أن الله تعالى يُثيبُ على رحمة الحيوان كما يُثيب على رحمة الإنسان .

(١) وهو رجل أعرابي من البادية .

(٢) وهذا من جفاء الأعراب وغلظتهم .

(٣) يعني : لا أجرؤ على ذبحها رحمة بها .

(٤) وهذا دليل على وجوب رحمة الحيوان .

- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً أضجع شاة^(١)، وهو يُحدُّ شفرته^(٢)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أتريد أن تميتهَا موتَتَيْنِ^(٣)، هَلَا أُحَدِّدَتَ شَفْرَتَكَ قبل أن تُضَجِّعَهَا^(٤)» رواه الطبراني في الكبير والأوسط والحاكم، واللفظ له، وقال: صحيح على شرط البخاري.

- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها^(٥) بغير حقها إلا يسأل الله عنها يوم القيامة^(٦)، قيل: يا رسول الله: وما حقها؟ قال: حقها أن تذبحها فتأكلها^(٧)، ولا تقطع رأسها فترمي به^(٨)» رواه النسائي والحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

- وعن الشريد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من قتل عصفوراً عبثاً^(٩) عَجَّ إلى الله يوم القيامة^(١٠)» يقول: يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً، ولم يقتلني منفعة» رواه النسائي وابن حبان في صحيحه.

(١) أى: أنماها على جنبها استعداداً للذبحها.

(٢) أى: يشحذها ويرققها.. والشفرة: أى: السكين.

(٣) وذلك لأنها تحس أن تلك السكين إنما تُحدُّ للذبحها فتمثل الموت فكانها ماتت قبل موتها.

(٤) أى: قبل أن تنيمها على جنبها.

(٥) أى: فما هو أكبر حجماً منها كالحمامة ونحوها.

(٦) أى: يسأل الله سبحانه عن سبب قتلها.

(٧) وذلك لأنها خلقت من أجل الانتفاع بلحمها.

(٨) أى: تلقبها ولا تنتفع بها.

(٩) أى: بلا فائدة ولا فرض صحيح.

(١٠) أى: رفع صوته بالشكوى إلى الله يوم القيامة.

- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فانطلق لحاجته ، فرأينا حُمرة^(١) معها فرخان ، فأخذنا فرخيهما ، فجاءت الحُمرة فجعلت تُعرّش^(٢) ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « مَنْ فجعَ هذه بولديها؟ »^(٣) ردّوا ولديها إليها» ورأى قرية نمل^(٤) قد حرقناها ، فقال : « مَنْ حرقَ هذه ؟ قلنا : نحن ، قال : إنه لا ينبغي أن يُعذبَ بالنار إلا ربُّ النار ، »^(٥) رواه أبو داود .

- وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال : أردفتني رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه - ذات يوم^(٦) - فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أُحدِّثُ به أحدًا من الناس ، وكان أحبُّ ما استتر به النبي صلى الله عليه وسلم لحاجته^(٧) هدفًا^(٨) ، أو حائشَ من نخلٍ^(٩) ، فدخل حائطًا^(١٠)

(١) وهي طائر أحمر اللون ، وجمعه : حُمُرٌ بتشديد الميم .

(٢) أى : ترتفع وتُظللُ بجناحيها فوقهم حزنًا على فرخها .

(٣) أى : من ألمها وأحزنها بسلب ولديها منها .

(٤) وهي موضع النمل مع النمل .

(٥) فترجو أن نلاحظ هذا بالنسبة لجميع الحشرات ، والتي منها البق مثلاً .. كما يفعل بعضهم .

(٦) أى : أركبهُ خلفه على الدابة .

(٧) أى : عند قضاء حاجته ، من بول أو غائط .

(٨) وهو كل مرتفع من بناء أو كتيب رمل أو جبل .

(٩) وهي النخل المجتمعة المتقاربة .. وهذا من آداب قضاء الحاجة .

(١٠) والحائط هو البستان .

لرجل من الأنصار ، فإذا فيه جَمَلٌ ، فلما رأى (١) النبي ﷺ حَنَ (٢) وذرفت عيناه (٣) ، فأثاه رسولُ الله ﷺ ، فمَسَحَ ذَفْرَاهُ (٤) ، فسكت ، فقال : « مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ؟ » (٥) لمن هذا الجمل ؟ « فجاء فتى من الأنصار ، فقال : لى يا رسول الله ، فقال : « أَفَلَا تَتَّقَى اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا ، فَإِنَّهُ شَكَأَ إِلَيَّ أَنْكَ تَجْبِعُهُ » (٦) وَتَذُنِبُهُ » (٧) رواه أحمد وأبو داود .

- وعن سهل بن الحنظلية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَصِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ (٨) ، فَقَالَ : « اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمَعْجَمَةِ » (٩) ، فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً ، وَكُلُّوهَا صَالِحَةً » (١٠) رواه أبو داود ، وابن خزيمة فى صحيحه ، إلا أنه قال : « قَدْ لَصِقَ ظَهْرُهُ » (١١) .

-
- (١) أى : فلما رأى الجمل رسول الله ﷺ .
(٢) أى : بكى بصوت فيه حنين .
(٣) يعنى : سال دمههما .
(٤) وهو العظم الذى خلف الأذن .
(٥) يعنى : من صاحبه ؟ .
(٦) أى : لا تعطيه كفايته من الطعام .
(٧) أى : تنعبه فى العمل .
(٨) وذلك من شدة الجوع فهزل وضعف .
(٩) أى : الخرساء التى لا تستطيع الشكوى بالكلام .
(١٠) يعنى : أعطوها حقها من العلف والطعام لتسمن وتقوى فتصبح صالحة للركوب والذبح .
(١١) أى : بدل قوله : « قد لصق ظهره » .

- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دخلت امرأة النار^(١) في هرة ربطتها^(٢) ، فلم تطعمها ، ولم تدعها^(٣) تأكل من خَشَاشِ الأَرْضِ^(٤) » وفي رواية : « عُدَّتِ امرأة في هرة سجنها حتى ماتت ، لا هي أطعمتها وسقّتها ، إذ هي حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خَشَاشِ الأَرْضِ » رواه البخارى وغيره ، ورواه أحمد من حديث جابر ، فزاد في آخره : « فَوَجِبَتْ لها النار بذلك » .

- وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « دنا رجل إلى بشرِ فنزل ، فشرب منها^(٥) ، وعلى البئر كلبٌ يلهث^(٦) ، فرحمه^(٧) ، فنزع أحد خفييه^(٨) فسقاه ، فشكر الله له^(٩) ، فأدخله الجنة » رواه ابن حبان فى صحيحه ، ورواه مالك والبخارى ومسلم وأبو داود .. أطول من هذا .

-
- (١) قيل : معناه : تدخل النار بصيغة الماضى لتحقيق الوقوع .
(٢) أى : بسبب هرة ربطتها وأرادت تعذيبها بذلك ، وفى رواية للبخارى : (حبستها) .
(٣) أى : تركها .
(٤) أى : من حشراتنا .. والمصافير ونحوها .
(٥) وكان قد اشتد به العطش .
(٦) يعنى : أنه لما خرج من البئر وجد كلباً يلهث ويخرج لسانه من شدة العطش ، فقال : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ منى ..
(٧) يعنى : رقق له .
(٨) يعنى : أخرجه من رجله وملاه بالماء .
(٩) أى : أثابه على رحمته بذلك الحيوان الأعجم .

- وعن المَعْرُورِ بنِ سُوَيْدٍ رضي الله عنه قال : رأيتُ أبا ذَرٍّ بالربذة (١) ، وعليه بُردٌ غليظٌ ، وعلى غلامه مثله . قال : فقال القومُ : يا أبا ذَرٍّ لو كُنْتَ أَخَذْتَ البُرْدَ الذى على غلامِكَ ، فَجَعَلْتَهُ مع هذا ، فَكانت حَلَّةً (٢) ، وكسوتَ غلامَكَ ثوباً غيرَه ؟ قال : فقال أبو ذَرٍّ : إنى كُنْتُ سابِبتُ رجلاً (٣) ، وكانَت أمُّهُ أعجميَّةً فَعيرَتُهُ بأُمَّه (٤) ، فشكاني إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا أبا ذَرٍّ : إنك امرؤٌ فيك جاهلية (٥) » ، فقال : إنهم إخوانكم فضلكم الله عليهم (٦) ، فمن لم يلائمكم (٧) فبيعهوه ، ولا تُعذِّبُوا خلقَ الله » رواه أبو داود ، واللفظ له ، وهو فى البخارى ومسلم والترمذى بمعناه ، إلا أنهم قالوا : « هم إخوانكم (٨) » ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يده ، فَلْيُطْعِمْهُ مما يَأْكُلُ ، ولْيَلْبِسْهُ مما يلبس ، ولا يُكَلِّفْهُ من العمل ما يَغْلِبُهُ ، فإن كَلَّفَهُ فَلْيَعْنَهُ عليه » واللفظ للبخارى .

(١) بالتحريك : قرية قرب المدينة أقام بها أبو ذر رضي الله عنه ومات بها .

(٢) أى : ثوباً كاملاً .

(٣) أى : شاتمته ، وهذا الرجل هو بلال رضي الله عنه .

(٤) وفى رواية أنه قال له : « يا ابن السوداء » .

(٥) أى : فيك بقايا ورواسب من أنفة الجاهلية .

(٦) أى : كما قال تعالى :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ (سورة النحل ، من الآية ٧١) .

(٧) أى : يوافقكم فى الطاعة وحسن الخدمة ونحو ذلك .

(٨) وفى رواية : (إخوانكم خولكم) أى : عبيدكم وإساؤم الذين يتخولون الأمور ، أى :

يُصلحونها .

وفى رواية للترمذى: «إخوانكم جعلهم الله فتيّة^(١) تحت أيديكم^(٢) ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه ، وليلبسه من لباسه ، ولا يكلفه ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه .»

وبهذا .. يتأكد لنا جميعاً حرص الإسلام ورسول الإسلام - صلوات الله وسلامه عليه - على أن يكون هناك تراحم بيننا نحن المسلمين والمسلمات - أياً كان وضعنا أو شأننا الدنيوي - وكذلك من جانبنا بالنسبة للحيوانات التي لا بد أن نلاحظ أنها تحس كما نحس ، وتتألم كما نتألم .. بالإضافة إلى أن لها طاقة لا بد أن نتعامل معها على أساسها ؛ حتى لا نكون لها أو لغيرها من الظالمين الذين سيقتصصُ منهم يوم القيامة أمام جميع المخلوقين ، إظهاراً لعدل الله تبارك وتعالى ..

كما يشير إلى هذا المعنى المراد من الحديث الصحيح الذى يقول فيه الرسول ﷺ : « من لا يرحم لا يرحم » ، وقد يُعذَّبُ فى نار جهنم كما عذِّبَت المرأة التى دخلت النار فى هرةٍ سجتها حتى ماتت .. كما قرأنا قبل ذلك فى نص الحديث .. والله أعلم .

- كما تأكد لنا كذلك من خلال ما وقفنا عليه أن الحبيب المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - كان كما تحدث الله عنه فى قرآنه : ﴿ رَحْمَةٌ

(١) جمع فتي ، وهو العبد ، ويطلق على الغلام الحدث ، أى : الصغير .

(٢) أى : مملوكين لكم .. والمراد بهم كذلك : الخدم .

لِلْعَالَمِينَ ﴿١﴾ .. ولهذا ؛ فقد حدث - بعد أن مات عمه أبو طالب ، ثم السيدة خديجة رضي الله عنها وبعد أن اشتد إيذاء الكفار له ولأصحابه الضعفاء - أن ذهب صلوات الله وسلامه عليه إلى الطائف (٢) علَّه يجد من قبيلة ثقيف - وهى أهم قبائل العرب بعد قريش - مَنْ ينصره ويؤازره .. ولكن - للأسف الشديد - لم يجد منهم إلا الجحود والإعراض، والسخرية والاستهزاء ، حتى لقد أغروا به عبيدهم وسفهاءهم يسبونونه ويصيحون وراءه ، ويقذفونه بالحجارة ، حتى ابتعد عن الطائف ، ولجأ إلى حديقة مملوكة لعتبة وشيبة ابني ربيعة ، فاحتمى بها وجلس فى ظل شجرة من أشجارها ، وقد أجهده التعب ، ودميت عقبه ، وضاق صدره ، واشتد به الكرب والبلاء ، ثم لجأ إلى الله بهذا الدعاء :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين . أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربى . إلى مَنْ تَكَلَّمْتَنِي ؟ إلى بعيد يتجهمْنِي ؟ أم إلى عدوٍ ملكتهُ أمرى ؟ إن لم يكن بك غضبٌ علىَّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى .. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحلَّ علىَّ سخطك . لك العتبى (٣) حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بك » .

(١) سورة الأنبياء : من الآية ١٠٧ .

(٢) وهى تبعد عن مكة نحو الخمسين ميلاً ..

(٣) العتبى : الرضا .

وقد ورد أنه - بعد أن دعا النبي ﷺ بهذا الدعاء العظيم - أرسل الله إليه الملك الموكَّل بالجبال ليقول له : لقد أمرني الله أن أطيعك في قومك فإن أردتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين (١) ..

ولكن النبي - صلوات الله وسلامه عليه - لم يطلب من الملك أن يفعل هذا ، أو مثل هذا .. ولم يأمره - مثلاً - بأن يجعل عاليها سافلها .. ولم يدع كما دعا سيدنا نوح على قومه قائلاً : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَّارًا ﴾ (٢) .

وإنما كل ما حدث منه صلوات الله وسلامه عليه .. هو أنه جفَّفَ دموعه .. ثم قال قوله الخالدة خلود الزمان : « اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون .. عسى الله أن يُخرج من أصلابهم من يقول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » :

فيتعجب الملك - الذي كان ينتظر منه عكس هذا - ثم يقول مخاطباً إياه ﷺ : « صدقَ مَنْ سَمَّاكَ الرَّعُوفَ الرَّحِيمَ ، وَالْمَلِكُ يُعْنَى - بقوله هذا - قول الله تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

(١) هما جبلان بمكة .

(٢) سورة نوح ، الآية ٢٦ .

(٣) سورة التوبة ، الآية ١٢٨ .

ولولا هذه الدعوة ، لما كان أبطال الإسلام الأوائل الذين دانت لهم الأمم وخضعت لسلطانهم الرقاب ، وكان فضل الله عليهم عظيماً .. بل لما كنا - نحن المؤمنين - كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .
- وكذلك ما حدث في العام الثامن للهجرة ، وبعد أن تم فتح مكة في اليوم العشرين من رمضان :

لقد اجتمع الناس حول رسول الله ﷺ - وكان منهم من ائتمروا به ليقتلوه ، ومن قاتلوه في بدر ، وفي أُحُد ، وحاصروه في غزوة الخندق ، وعذبوه وأصحابه - فقد نظر إليهم جميعاً وهم في قبضة يده .. ثم قال لهم : « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً .. أخ كريم وابن أخ كريم .. فقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ، لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين .. » .

فكانت النتيجة الحتمية لهذا العفو الشامل أن دخل أكثرهم في دين الله أفواجا^(١) .

- فليكن كل هذا التذكير مترعباً على قلوبنا - بالإضافة إلى ما سبق التذكير به - حتى نحرص دائماً وأبداً على أن نكون أهلاً لرحمة الله .. بتنفيذنا

(١) كما يشير إلى هذا قول الله تعالى في سورة النصر : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ ﴾ .

لكل تلك الصفات الحميدة ، والأعمال الجليلة ، التي هي السبيل - كما عرفنا ، وكما وقفنا - إلى فضل الله تعالى ورحمته .. مع ضرورة الاستعانة على تحقيق هذا الأمل المنشود بالدعاء الذي « هو العبادة »^(١) ، ولا سيما إذا كان الله تعالى هو الذى يأمرنا بالدعاء ، فيقول : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾^(٢) .

- وليكن الدعاء بمثل هذا الوارد الصحيح :

- عن طارق بن أشيم رضي الله عنه قال : كان الرجل إذا أسلم علمه النبي صلوات الله عليه

الصلاة ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات : « اللهم اغفر لى ، وارحمنى ، واهدنى ، وعافنى ، وارزقنى » رواه مسلم ، وفى رواية له ، عن طارق أنه سمع النبي صلوات الله عليه أنه أتاه رجلاً ، فقال : يا رسول الله كيف أقول حين أسأل ربى ؟ قال : « قل : اللهم اغفر لى ، وارحمنى ، وعافنى ، وارزقنى ، فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك » .

- وعن أبى بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لرسول الله صلوات الله عليه : علمنى دعاءً

أدعوه به فى صلاتى . قال : « قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم » متفق عليه .

(١) الحديث رواه أبو داود والترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح .. ونصه : عن النعمان بن

بشير رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليه قال : « الدعاء هو العبادة » .

(٢) والآية نصها : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ . { سورة غافر : من الآية ٦٠ } .

- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« اللهم إني أسألك مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ ، وَعَزَائِمِ مَغْفِرَتِكَ ، وَالسَّلَامَةَ
مِنْ كُلِّ إِثْمٍ ، وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بَرٍّ ، وَالْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ ، وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ »
رواه الحاكم أبو عبد الله ، وقال : حديث صحيح على شرط مسلم .
- وفي الختام .. أسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبل منا دُعاءنا .. وأن يجعل
ما وقفنا عليه - في موضوعنا - من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية .. حُجَّةً
لنا لا علينا .. حتى نكون - إن شاء الله تعالى - من أهل الرحمة .. بل ، وحتى
نكون قد اقتدينا بنبي الرحمة - صلوات الله وسلامه عليه - .. اللهم آمين .

خادم القرآن والسنة
طه عبد الله العفيفي

مراجع الكتاب

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - الجامع لأحكام القرآن ، للإمام القرطبي - طبعة دارالشعب .
- ٣ - مختصر تفسير الطبري ، اختصار وتحقيق الشيخ محمد علي الصابوني ، والدكتور صالح أحمد رضا - طبعة دار التراث العربي - القاهرة .
- ٤ - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف (للمندري) ، ضبط أحاديثه وعلق عليه فضيلة الشيخ الجليل محمد خليل الهراس - رحمه الله . الناشر : مكتبة الجمهورية العربية - بالقاهرة .
- ٥ - رياض الصالحين ، للإمام النووي - أوضح معاني حديثه الأستاذ مصطفى محمد عمارة - طبعة دار إحياء الكتب العربية - بالقاهرة .
- ٦ - الدين الخالص ، للإمام الشيخ محمود خطاب السبكي - رحمه الله تعالى - عنى بتحقيقه وتصحيحه والتعليق عليه : فضيلة الشيخ أمين محمود خطاب السبكي - رحمه الله تعالى .
- ٧ - فقه السيرة ، لفضيلة الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - طبعة دار الكتب الحديثة - بالقاهرة .
- ٨ - مفتاح الخطابة والوعظ .
- ٩ - حاشية الصاوي على الجلالين .
- ١٠ - مختار الصحاح .
- ١١ - القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، للدكتور محمد الطيب النجار - عليه رحمة الله .
- ١٢ - (خلفاء الرسول ﷺ) ، للأستاذ خالد محمد خالد - عليه رحمة الله - طبعة دار الفكر .
- ١٣ - العظات البالغات ، لفضيلة الشيخ عبد الناصر فاضل علي - عليه رحمة الله .
- ١٤ - الإبداع في مضار الابتداع ، للشيخ علي محفوظ ، رحمه الله .
- ١٥ - الفقه الواضح ، للأستاذ الدكتور محمد بكر إسماعيل .